الفصل الأول

التاريخ الأسطوري للشاي الأخضر

التاريخ الأسطوري للشاي الأخضر

أثبتت الأدلة الأثرية أن أوراق الشاي المنقوعة في الماء المغلي يرجع تاريخ استهلاكها فيما يزيد على ٥٠٠٠ سنة مضت وأن الهند والصين كانتا من أولى دول العالم التي قامت بزراعة الشاي.

وتشرب مئات الملايين من الناس على مستوى العالم الشاي هذه الأيام وقد أثبتت الأبحاث أن الشاي الأخضر والذي يطلق على نبتته علميا اسم *Camellia sinensis* له العديد والعديد من التأثيرات الصحية الجيدة.

وقد تناقلت الألسن وتداولت الأجيال الحكاية الأسطورية للشاي التي رُوِيَت في الصين القديمة وذلك فيما يزيد على ٥٠٠٠ سنة مضت.

وتروي الأسطورة أن الإمبراطور الصيني القديم (٢٧٣٧ قبل الميلاد) والمدعو شين نونج Shen Nung كان يتسم بسمات طيبة: فقد كان حاكمًا حاذقًا، عالمًا مبتكرًا وخلاقًا، وكذلك كان محبا بل ومشجعا للفنون. ومما يدل على حكمة الرجل البالغة وفكره المتقد السديد وذكائه الفذ أنه فيما كان يتصف به من صفات كان يغلي ماء الشرب قبل تناوله كإجراء صحي.

وفي أحد أيام الصيف بينما هو وحاشيته يتجولون في جزء نائ من إمبراطوريته، توقف هو ورفاقه لأخذ قسط من الراحة. وحسب توجيهاته وطقوسه المتبعة شرع الخدم في غلي الماء للإمبراطور ومرافقيه لكي يتمكنوا من شربه بأمان.

وهنا، وبمحض الصدفة البحتة "رب صدفة خير من ألف موعد" سقطت بعض الأوراق الجافة الموجودة بالقرب من مكان غلي الماء في قِدْر غلي الماء فانتشر سائل بني اللون في الماء الساخن.

ودفع الفضول والاهتمام هذا العالِم الحاذق الخبير ببعض شئون الأعشاب، إلى البحث في كنه ومعرفة هوية هذا السائل البني الذي لم يراه من قبل والذي لا يعرف هو أو رفاقه له مثيلا ولا يعرف هذا السائل إلى مطبخهم سبيلا، فقام الإمبراطور شين نونج برشف بعضا منه ويا لهول المفاجأة أن يجده منعشا جدا. وبهذا الموقف القدري وكما تروَى الأسطورة عُرف مشروب الشاي.

وهذا هو ما رُوِي في الأدب الصيني الذي أرخ للشاي، فهو كما يروى يرجع تاريخ الشاي إلى ٢٧٣٧ سنة قبل الميلاد وهو تاريخ تواجد الإمبراطور الصيني شين نونج.

واختلقت الأسطورة روايات أخرى منها أن شين نونج هذا الإمبراطور الأسطوري الذي ابتدع الزراعة والطب الصيني القديم، كان في رحلة منذ حوالي ٥٠٠٠ سنة مضت، وقد عُرف عنه معاملته للأمور بطريقة علمية، حيث اعتقد الرجل أنّ أسلم طريقة لشرب الماء هي غليه أولا. وفي إحدى الأيام لاحظ شين نونج تساقط بعض الأوراق النباتية في الماء الذي يغلي. فقام هذا الامبراطور الفضولي المحب للبحث والتحقيق بأخذ رشفة من هذا الشراب وقد اندهش وأحس بسعادة وانتشى من الطعم وقدرة هذا الشراب على إحداث الشفاء وإبقاء اليقظة.

وفي وجه آخر للأسطورة، يروى أن الامبراطور كان يختبر الخصائص الطبية للأعشاب المختلفة بنفسه، وقد وجد أن بعض الأعشاب سام وبعضها لا، وأن الشاي عمل كما لو كان ترياق مضاد للسموم.

وسواء وجد هذا العالم الشاي نافعا أم لا فنحن نخالفه طريقة إجرائه لتجاربه فلا يجب أن يجرب العالم مادته على نفسه أو حتى على غيره فما يدريه أنها ليست سامة أو قد تتسبب في إمراضه، ولكن وحتى إن ثبتت صحة الأسطورة فنحن نتلمس له العذر فنحن لا نتحدث عن عالم من عالمنا المعاصر بأدواته وآلاته بل نتحدث عن حقبة ما قبل الميلاد والتي فيها ربما لم يكن العالم يعرف إلى كلمة العلْم سبيل.

وتبعا للأسطورة الصينية والتي انتشرت مع انتشار المذهب البوذي، يُرْوَى أن المذهب الهندي البوذي انتشر مع اكتشاف الشاي. فعندما سافر الراهب البوذي مؤسس مدرسة شان Chan للبوذية إلى الصين، استشاط غضبا لأنه وقع في نوم عميق أثناء تأمله، فقام بقطع جفون عينيه معاقبا نفسه على ما فرط في دينه وأخْذِه سنةً من النوم أثناء تعبده أي تأمله فنبتت شجيرات الشاي في البقعة التي ارتطمت عندها جفونه بالأرض. وأحيانا تروى هذه القصة مرة أخرى ببطل آخر هو جوتاما بودها في مكان هو بودهيدهارما.

وفي رواية مغايرة لرواية الإمبراطور شين نون يروى أن كوتاما بودها Cautama Buddha اكتشف الشاي عندما سقطت بعض الأوراق في الماء المغلي.

وتُرْوَى رواية مغايرة لكل ما سبق حيث وجد رجل يدعى شيين نون شيي Shien Non Shei نباتا فتذوق ورقة منه، فوجد طعمها رائعا لدرجة خيالية فقرر أن يخلطه بالماء لكي يصنع منه شرابا كما اعتقد الرجل أيضا أن لهذا النبات خصائص طبية.

وبصرف النظر عن صحة هذه الأساطير أو عدم صحتها، يتضح لنا جليا أن الشاي قد لعب دورا هاما في الحياة الآسيوية لعدة قرون كمشروب رئيسي، ومعالج، وكرمز لحالة الناس والمجتمع الاقتصادية. وليس عجيبا أن يُعْزَى اكتشافه إلى مصادر دينية أو ملكية.

وقد يتسائل البعض كيف يجد شخص مشروب الشاي أو منقوع أوراق الشاي في الماء لذيذا ومنعشا بدون وضع أي مادة محلية مثل السكر. ونرد ونقول بأن هذه الأساطير قديمة وقد يكون في العصور التاريخية السحيقة لم يكن السكر قد عُرِف أو بدأ تصنيعه وكان الناس يعتمدون على ما تهبه لهم الطبيعة.

وتوضح الأدلة التاريخية أنه في الثقافة الصينية القديمة كان الشاي مستهلكا بين طوائف المجتمع الصيني. ففي سنة ٨٠٠ كتب لو يو A. D. Lu Yu أول كتاب عن الشاي وهذا الكتاب هو شا شينج Chá ching.

ومن الطريف أن نعرف أن هذا الرجل المدهش قد تيتم في سن صغير وقد رباه الرهبان البوذيون في إحدى الأديرة الصينية. وعلى الرغم من هذه التربية، فلصغر سن هذا الرجل وعدم خبرته بشئون الحياة وافتقاره إلى الصبر والحكمة نفر من هذه الحياة وتمرد على

النظام الكهنوتي وبدأ يتفحص ويتأمل ما حوله من الأشياء حتى نمت مداركه وتفتحت قرائحه.

وقد ذاع صيت هذا الرجل الحاذق الثاقب النظرة سنة بعد أخرى. وبالرغم من هذا كله كان الرجل يحس في قرارة نفسه بأن حياته ينقصها الهدف أو المعنى.

وأخيرا، وبعد رحلة الصراع الداخلي لما كان يجول ويصول في نفسه اعتزل الرجل الخلق لمدة خمس سنوات يصور من ذاكرته المكتظة ومخيلته الملئ بالمعلومات التي لاحظها، وجمع الطرق والوسائل المختلفة لزراعة الشاي وتحضيره عند الصينيين القدماء.

وقد عضد الإمبراطور الصيني هذا الرجل وساعده وشجعه على الاستمرار فيما يقوم به من تدوين وحفظ لملاحظاته وكتاباته. ويأخذ عمل هذا الرجل خط أو منهاج فلسفة زين البوذية، وكانت وصفته للشاي هي التي قدمت إلى إمبراطور اليابان عن طريق حملات التبشير البوذية.

وقد أُحضرت أول بذور شاي إلى اليابان على يد الراهب البوذي العائد إلى اليابان بيسي Yeisei والذي تعرف على فائدة الشاي في الصين ومن أجل ذلك فقد لقب هذا الرجل بأبو الشاي في اليابان.

ولهذا فقد ارتبط وجود الشاي في اليابان بحركة زين البوذية. وقد انتشر استهلاك الشاي سريعا من البلاط الملكي إلى كل طوائف المجتمع الياباني.

وقد علا شأن الشاي وارتقى مكانة سامية حتى أصبح ينظر إلى احتفاله على أنه نوع من الفنون، مما حبا بأولي الأمر إلى اختلاق احتفالا يطلق عليه الإحتفال الياباني للشاي.

ومن أفضل من وصف احتفال الشاي الياباني هو المؤرخ والصحفي الأيرلندي- اليوناني لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn.

وقد كتب لافكاديو من واقع ملاحظاته الشخصية واصفا لواقع الحال بكلمات عذبة رقيقة ما جرت عليه عادة اليابانيون آنذاك "يحتاج مهرجان الشاي إلى سنوات من التمرين لكي يتخرج الشخص في الفن ..... وهذا الفن نظرا لتفاصيله وخطواته واستعداداته البسيطة ليس أكثر من تحضير وتقديم كوب من الشاي.

والمسألة الكبرى هي التصرف الذي يُؤَدَّى على الوجه الأكمل، وفرط الأدب، وحلو الشمائل في أكثر صورة ساحرة ممكنة".

ويعني هذا كما يسرده لافكاديو على طريقته أن احتفال الشاي يجب أن يكون مسبوقا بالتدريب على إعداد الشاي وتقديمه في صورة لطيفة مبهجة تدخل على النفس الغبطة وتبعث على السرور والانسجام.

وقد تمخض عن فن الاحتفال بالشاي تطور وارتقاء الذوق العام وكذلك ظهور فنون مساعدة مدعمة له وخدمات مكملة لكي تضفي على الاحتفال نوع من العذوبة والرقة إضافة إلى تطور نوع خاص من الهندسة المعمارية لبناء بيوت الشاي "tea houses" لإنتاج بيوت أو أشكال مبسطة من الأكواخ التي تقام في الغابات لإضفاء جو من الصفاء والهدوء والبساطة على المناخ الذي يُحتَسَى فيه الشاي.

وبدأت الفتيات اليابانيات التمرين على التقديم وأصول وقواعد الضيافة في احتفال الشاي الذي عرف باسم جيشي "Geishi".

ولأن العديد والعديد من الناس أصبحوا مرتبطين بل ومغرمين بالإثارة التي تكتنف الشاي، تغيرت طبيعة الاحتفال، فَفُقِدَت نقاوة وهدوء الاحتفال الذي بدأ مع حركة زين الأصلية، وتلاشى هدوء الاحتفال وأصبح مصحوبا بالجلبة والصياح والضجيج والكثير من الزخرف والزينة.

وقد أقيمت مباريات الشاي بين الأغنياء حيث يتنافسون فيما بينهم على جوائز ثمينة في إطلاق أسماء على الأنواع المختلفة من توليفات الشاي، ويثاب الفائزين بجوائز قيمة من الحرير والمجوهرات وغيرها. وقد أعاد ثلاث رهبان للشاي مكانته الأصلية في المجتمع الياباني وهم:

١- إكيو Ikkyu (١٣٩٤- ١٤٨١). وهو أمير تحول إلى راهب وقد استطاع إرشاد النبلاء إلى إصلاح مهرجان الشاي.

٢- موراتا شوكو Murata Shuko (١٤٢٢- ١٥٠٢). وهو تلميذ إكيو وكان له دور فاعل في إعادة عادة مهرجان الشاي إلى المجتمع الياباني.

٣- سين- نو ريكيو Sen-no Rikkyu (١٥٢١- ١٥٩١) وهو الراهب الذي وضع القواعد الصارمة المنظمة للمهرجان وهي نفس القواعد التي ما زالت مطبقة حتى الآن.

وقد كان لسين- نو ريكيو تأثيرا كبيرا على شوجن تويوتومي هيديوشي Shogun Toyotomi Hideyoshi المسئول الياباني رفيع الشأن المناط بفن الشاي.

ونتيجة لما يتسم به شوجن تويوتومي هيديوشي من الصفات القيادية واللوذعية، استطاع بما يتميز به من إلمام وحس مرهف بالشعر والفن أن يجعل الشاي جزء لا يتجزأ من طريقة الحياة اليابانية، بل أصبح يُنْظَرُ إلى الشاي على أنه عطية أو هبة سماوية وسمت مكانته وارتقت لدرجة أن القادة كانوا يتوقفون لاحتسائه قبل المعارك الحربية.